ISSN 2735-4822 (Online) \ ISSN 2735-4814 (print)

Pragmatic contexts and their impact on the story of Moses, peace be upon him, and the good man - Pragmatic study –

PhD. Fatima Abdulrazak Abdulrahman Karamastaji
researcher in Arabic Language and Literature- College of Arts, Mohammad bin Zaid University, UAE
202100260@mbzuh.ac.ae
Prof. Labidi Bousbdullah
Head of the Arabic Language Department
College of Arts, Mohammad bin Zaid University, UAE
Labidi.bouabdallah@mbzuh.ac.ae

Receive Date: 8 June 2023, Revise Date: 16 July 2023
Accept Date: 14 August 2023.
DOI: 10.21608/BUHUTH.2023.214326.1517
Volume 3 Issue 11 (2023) Pp.248- 269

Abstract

" This study aims to highlight the importance of the pragmatic approach as a modern linguistic approach in the study of language, looking for a solution to many linguistic problems neglected by other linguistics. Pragmatics is an extension of the efforts of the functional direction, which believes that the communication process goes beyond that to external elements represented in everything that surrounds the conversational process; In order to clarify the intentions of the speaker, and his meanings that are required to be delivered to the addressee which allows identifying the human capabilities of linguistic communication. Therefore, Rudolph Carnap considered pragmatics the base of linguistics. Because the meanings of speech also the results from the semantics through the circumstances of the context. This is what gave this field a new epistemological dimension in which sciences overlap. This is what the current study came to prove by employing the analytical descriptive approach and choosing the pragmatic approach to analyze the story of Moses -peace be upon him- with the good man in Surat Al-Kahf; this is because of the Quranic discourse of uniqueness over all discourses, and to show the impact of the Pragmatic context (verbal and actual) on understanding events and changing attitudes accordingly.The study showed the effectiveness of the pragmatic approach and its validity for all linguistic discourses, due to the capacity of pragmatic, because of its various sources.

***Keywords*:** pragmatic contexts, Quranic discourse, the story of Moses with the good man, the act of achievement, the implications of saying.

السياقات التداوليّة في قصّة موسى عليه السلام والعبد الصالح
- دراسة تداوليّة -

فاطمة عبد الرزاق عبد الرحمن كرمستجي

باحثة دكتوراه الفلسفة في اللغة العربية وآدابها

كليّة الآداب، جامعة محمّد بن زايد للعلوم الإنسانيّة، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

202100260@mbzuh.zac.ae

أ.د. لعبيدي بوعبدالله
أستاذ اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمّد بن زايد للعلوم الإنسانيّة، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

Labidi.bouabdallah@mbzuh.ac.ae

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهمّيّة المنهج التداولي كاتجاه لساني حديث في دراسة اللغة، يبحث عن حَلٍّ للعديد من المشكلات اللغوية التي أهملتها اللسانيات الأخرى؛ فالتداولية ليست علماً لغويا محضاً؛ وإنّما هي امتدادٌ لجهود الاتّجاه الوظيفي الذي يرى أنّ عمليّة التخاطب لا تقتصر على الجانب اللغوي وحده، واصفةً ومفسّرة للبنى اللغوية، ولا تتوقف عند حدودها الظاهرة وحسب، بل تتجاوز ذلك إلى عناصر خارجيّة تتمثّل في كل ما يحيط بالعملية التخاطبية: كالمتكلم، والمخاطب، ومكان وزمان التخاطب، والحاضرين في أثناء الخطاب، وعلاقة المتكلم بالمخاطب، والمستوى الثقافي لهما؛ لتتضح مقاصد المتكلم، ومعانيه المطلوب إيصالها للمخاطب، كما تتجاوز كذلك إلى الظواهر اللغوية في أثناء الاستعمال والذي تغفله الكثير من المناهج الأخرى، مما يُتيح التعرّف على القدرات الإنسانيّة للتواصل اللغوي. لذلك عدّ (رودلف كارناب ت: R. Carnap 1970) التداوليّة قاعدةَ اللسانيات؛ لأنّ معاني الكلام فيها لا تكمن في المفردات والتراكيب وحدها، ولا في العملية المعرفية المجردة من سياقها، وإنّما تكمن فيما يقصد المتكلم، وفيما يفهم المتلقي (استماعاً أو قراءةً)، وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق. وهذا ما أعطى لهذا الحقل بعداً ابستمولوجياً (معرفياً) جديداً تتداخل فيه العلوم؛ لتفتح بذلك مجالاً واسعاً في آفاق اللسانيات. وهذا ما جاءت الدراسة الحالية لتثبته بتوظيف المنهج الوصفي التحليلي، واختيار المنهج التداولي لتحليل قصّة موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح في سورة الكهف؛ وذلك لما للخطاب القرآني من تفرّد وتميّز على جميع الخطابات؛ ولبيان أثر السياق التداولي (اللفظي والفعلي) في فهم الأحداث والمجريات وتغيير المواقف تبعًا لها.

وقد أظهرت الدراسة فاعليّة المقاربة التداوليّة وصلاحيّتها لجميع الخطابات اللسانيّة؛ إذ تصلح لتناول الكتابات الإبداعيّة في شتّى المعارف والعلوم -ناهيك عن النّص القرآني، والأحاديث النبويّة-، وذلك لما تتمتّع به التداوليّة من سعة بسبب مناهلها المتنوّعة، فتدرس تلك النصوص جميعها بوصفها تجارب إنسانيّة عبر الأزمنة، وذلك وفق المقام ومتطلّبات السياق.

الكلمات الدالة: السياقات التداوليّة، الخطاب القرآني، قصّة موسى والعبد الصالح، الفعل الإنجازي، متضمّنات القول.

مقدمة:

لا خلاف في أنّ النّص القرآني المعجِز لا يُضاهيه نصّ، ولا يجاريه خطاب، ولا ينافسه في تنوّعه كتابٌ أدبيّ مهما بلغ في الإبداع، ومن هنا وقع اختيار الباحثة على دراسة السياقات التداوليّة في قصّةٍ من أشهر القصص الواردة في القرآن الكريم -على كثرة ما يعجّ به القرآن من قصص-، كما وقع الاختيار على التداولية منهجًا لتحليل القصة المختارة ودراسة سياقاتها وأحداثها؛ لأنّ التداوليّة اتجاه لسانيٌّ حديث في دراسة اللغة، يوظّف -إلى جانب اللغة- عناصر خارجيّة تتمثّل في كل ما يحيط بالعملية التخاطبية من (متكلّم، ومُخاطَب، والعلاقة بينهما، والمستوى الثقافي لكلّ منهما، والمعنى المراد إيصاله، ونص الخطاب، ومكان التخاطب وزمانه، والحاضرين)، ويدرس اللغة المستعملة الكاشفة للقدرات الإنسانية في التواصل اللغوي. فكانت المنهج المناسب لدراسة القصّة المختارة.

أهمية البحث:

وتستمدّ هذه الدراسة أهميّتها من أهميّة الدرس التداوليّ بوصفه منهجًا مهمًّا من المناهج اللسانيّة الحديثة التي تدرس الاتّصال اللغوي والسياق ووظائفه؛ فتهتم التداوليّة باللغة المستعمَلَة، وتُعنى بعلاقة اللغة بمستعمليها، وتدرس أثر السياق في بنية الخطاب، وتأثيره في معنى الأقوال، كما أنّها أداة لإنجاز أعمال لا تتحقّق إلّا باللغة المؤثّرة في السياق، وتهتمّ كذلك بالعناصر الخارجية للعملية التخاطبيّة، ولا تقتصر على الجانب اللغوي وحده. وقد أثبت المنهج التداولي تمكّنه من حلّ الكثير من القضايا اللغوية والتواصليّة والسياقات المختلفة.

الهدف من البحث:

وتهدف الدراسة الحالية إلى"تحليل أبعاد السياقات التداوليّة في الخطاب القرآني، بالتطبيق على (قصّة موسى عليه السلام والعبد الصالح في سورة الكهف) نموذجًا"، وذلك بعد إلقاء الضوء على أدوات المنهج التداولي ومصطلحاته، وتوضيحها بالأمثلة، مع بيان أثر التحليل التداولي في رصد تغيّرات المواقف والأقوال بتغيّر السياق.

مشكلة البحث:

وتكمن صياغة إشكالية هذه الدّراسة في الإجابة عن السؤال الآتي:

ما وجه التقارب بين التعبير القرآني عن تغيّر المواقف بتغير السياقات في قصة موسى (عليه السلام) مع العبد الصالح وبين السياقات التداوليّة بأنواعها، وما تتضمّنه من أقوال كلاميّة؟

الدراسات السابقة وموقع البحث الحالي منها:

من الدراسات السابقة التي تطرقت إلى تحليل مظاهر متنوعة من التداوليات النصية ما يأتي:

- **الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف – دراسة تداوليّة (رسالة ماجستير)، 2011**، إعداد: آمنة لعور. وهي الدراسة الأقرب للدراسة الحالية، وهي تشمل السورة كلها، وتدرس السياق المقامي للسورة، إلى جانب تحليل الأفعال الكلاميّة، في حين اكتفت الدراسة الحالية بسياق المقام دون الأفعال الكلاميّة لضيق الورقة البحثية عما تحتمله الرسالة الجامعيّة، كما اكتفت الباحثة فيها باختيار الآيات المتعلّقة بقصة موسى عليه السلام للسبب نفسه، ولمزيدٍ من التركيز في الأحداث والسياقات المتعلّقة بالقصّة؛ فتأتي الدراسة أكثر دقّةً وعمقًا.

- **دراسة تداولية سيميائية لتصريف قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، 2013**، إعداد: سليمة مدلفاف. وهي دراسة مختلفة، فيها بعدٌ سيميائي. تتبع تداوليةُ الدّرجةِ الأولى، التي تشتمل دراسة الرموز. وهي دراسة بعيدة عن الدراسة الحالية.

- **الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني – سورة البقرة أنموذجًا – (رسالة ماجستير)، 2015**، إعداد: عيسى تومي، وهي دراسة تداولية شاملة في سورة البقرة.

- **دراسة لغوية تطبيقية للأفعال الكلاميّة في سورة الكهف (بحث منشور)، مارس 2017**، إعداد: قدور خلوفي. تناولت هذه الدراسة سورة الكهف كاملة كذلك، ولكن اكتفت بتحليل الأفعال الكلامية؛ لضيق مجال البحوث المعدّة للنشر عن المزيد.

- **تداولية الإشاريات في قصّة موسى (عليه السّلام) (بحث منشور)، 2020**، إعداد: نهلة حسين طه، وهذه دراسة تناولت تداولية الدرجة الأولى التي تتناول الرموز والإشارات.

- **الأفعال الكلامية الإنجازية في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، 2020**، إعداد: عفيفة المسرورة. وهذه بعيدة كل البعد عن الدراسة الحالية.

المنهج المتبع:

وأمّا منهج الدراسة فاقتضت هذه الدراسة اعتماد المنهج التداولي في التطبيق على الآيات (65-78 من سورة الكهف)، المتعلّقة بقصّة موسى (عليه السلام) والعبد الصالح؛ وذلك بتحليل السياقات والمواقف والخطابات وفق المنهج التداولي؛ لبيان أثرها من خلال العينة المستهدفة في الدراسة، المتمثّلة في الآيات (65-78) من سورة الكهف، المتعلّقة بقصّة موسى عليه السلام والعبد الصالح في المواقف الثلاث: (موقف السفينة، وموقف قتل الغلام، وموقف إقامة الجدار الآيل للسقوط). أمّا الخلفية التاريخية للمنهج التداولي فقد تمّ بمنهجٍ وصفيّ، وذلك بذكر النشأة والتطوّر، وبيان الجانب النظري للتداوليّة، وأدواتها وآليّاتها ومصطلحاتها، مع الأمثلة.

خطة البحث:

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يقع في **مقدمة وأربعة مباحث**، أمّا **المقدّمة:** فتتضمّن ملخّصًا تمهيديًّا للموضوع، وأمّا المباحث فكالآتي: **المبحث الأول:** يحوي تعريفًا للتداوليّة لغةً واصطلاحًا، ثم نشأة التداوليّة ونموّها، والدرجات الثلاث للتداوليّة. **المبحث الثّاني:** يتناول أبرز مفاهيم التّداوليّة. **المبحث الثالث:** يتناول مظاهر الدرس التداولي في مؤلفات العلماء العرب القدامى. **المبحث الرابع:** إضاءة نظريّة على السياقات التّداوليّة، وتحديد السياقات التداوليّة الواردة في قصّة موسى والعبد الصالح، ثمّ التطبيق عليها مثالًا يبيّن أثر تلك السياقات التداوليّة في الخطاب القرآني. ثم **الخاتمة** وتتضمّن أبرز النتائج والتوصيات، ثمّ **ثبت المراجع.**

وقد استعانت الباحثة في جمع محتويات هذه الورقة بمراجع متنوّعة ورقيّة وإلكترونيّة، تتنوّع بين الكتب والأبحاث الجامعيّة، والمحاضرات، والبحوث المنشورة في الدوريّات وفي الشبكة.

المبحث الأول: التداولية مفهومها ونشأتها:

أولًا: تعريف التداوليّة لغةً واصطلاحًا:

يرجع مصطلح التداولية (Pragmatique) في الدراسات الغربية إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) المبنية على الجذر(Pragma) ، ويعني العمل أو الفعل(Action) .[1] أما في أصله العربي فيعود إلى الجذر اللغوي (دَوَلَ)، فقد ورد في معجم (أساس البلاغة) للزمخشري: "دَوَلَ: دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدالَ الله بني فلان من عدوّهم، جعل الكرّة لهم عليه... وأُديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأُديل المشركون على المسلمين يوم أُحد... والله يُداول الأيام بين الناس مرةً لهم ومرةً عليهم... وتداولوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما...". [2]

وتدلّنا تلك المعاني من جذر (دَوَلَ) إلى أنّها تدور في نفس الفلك الذي يعبر عن التفاعل والتواصل، والانتقال والتحوّل، مع وجود أكثر من طرف في هذه العملية "وتلك حال اللغة، متحوّلة من حال لدى المتكلم إلى حالٍ أخرى لدى السامع، ومتنقلة بين النّاس، يتداولونها بينهم، ولذلك كان مصطلح (تداولية) أكثر ثبوتاً بهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى الذرائعية، النفعية السياقية...وغيرها".[3]

أمّا تعريف التداوليّة اصطلاحًا فقد اختلف الباحثون فيه، لأنّ التداوليّة تنهل من منابع عدّة، وتعدّ ملتقى لمصادر مختلفة يصعب حصرها، ولأنّ لكلّ مفهوم من مفاهيمها حقلًا معرفيًّا انبثقت منه، فـ (الأفعال الكلامية) ولدت من رحم الفلسفة التحليلية، و(نظرية المحادثة) انبثقت من فلسفة (بول غرايس ت: 1988 P. Grice)، وأما (نظرية الملاءمة) فقد خرجت من علم النفس المعرفي، وهكذا... ولذا نجد (ماري دبير Mary Dear) و(فرانسوا ريكاناتي Francois Recanati) يعرّفان التداوليّة على أنّها دراسة استعمال اللغة في (الخطاب)، فهي من البحوث النطقية اللسانية التي تُعنى باستعمال اللغة، وتكشف مقدرتها الإبلاغيّة والخطابيّة. وهذا ما جمعه تعريف (فرانسيس جاك Francis Jack) الذي يرى أنّ (التداوليّة تتطرّق إلى اللغة كظاهرة خطابيّة وتواصليّة واجتماعيّة معًا). فالتداوليّة تتجاوز الدراسة البنويّة للغة إلى دراستها في استعمالها.

وباعتباره أول من أدخل التداوليّة إلى الثقافة العربيّة، فقد جعلها الفيلسوف المغربي (طه عبد الرحمن) تختصّ بوصف كلّ "ما كان مظهرًا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامّة النّاس وخاصّتهم..."[4] والتداوليّة عند (أوستين ت: 1859 John Austin) جزءٌ من علمٍ أعمّ، هو دراسة التعامل اللغويّ من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، وبهذا ينتقل باللغة من مستواها اللغويّ إلى مستوًى آخر، هو المستوى الاجتماعيّ. وفي الإطار نفسه يقول صلاح فضل: "فالتداوليّة إذن تُعنى بالشروط والقواعد اللازمة الملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصّة به، أي العلاقة بين النصّ والسّياق".

ومن هذه الرؤى المتعددة تغدو التداولية في مفهومها العام دراسة للغة في أثناء التواصل والاستعمال، فهي تجمع بين اللغة والسياق في أثناء الدراسة لفهم المعنى، لأن المعنى ليس شيئاً كافياً في الكلمة وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، بل لابد من تضافر جميع الأقطاب التواصلية للوصول إلى المعنى في الكلام.

ولم تصبح التداولية علماً يعتد به إلا في السبعينيات من القرن العشرين، بعد أن قام بتطويرها فلاسفة اكسفورد، حيث درسوا اللغة وربطوها بكل ما يحيط بها في أثناء التلفظ، فصارت التداولية تهتم بوصف

[1] – انظر: ابن رزوق، سامية، **بين البلاغة العربية والتداوليّة**، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ع: 17، 2013، ص 255.

[2] – الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، دار صادر، بيروت، 1412هـ/1992م، ط1، مادة (دَوَلَ)، ص198. وانظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955، مج: 11، مادة (دَوَلَ)، ص ص252-253.

[3] – بوجادي، خليفة، **في اللسانيّات التداوليّة، مع محاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم**، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، 2009، ص148.

[4] – انظر: لعيشي، نسيمة، **التداوليّة في فكر طه عبد الرحمان**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة محمد بو ضياف، المسيلة، الجزائر، 2016، ص29.

العلاقة القائمة بين المرسِل والمرسَل إليه أثناء التواصل وتُعنى بالحدث اللغوي، لفهم قصد المتكلم وبذلك جمعت بين الأقطاب التواصلية الثلاثة وهي المتكلم، والمتلقي، والخطاب.

ثانيًا: نشأة التداوليّة ونموّها [1]

توافقت التداوليّة تقريباً مع نشأة العلوم المعرفية، حيث بدأ التيار التداولي في بداية الأمر من كبار الفلاسفة أمثال (وليام جايمس ت: 1910 William James) و(جون ديوي ت: 1952 John Dewey) و(ريتشارد رورتي ت: 2007 Richard Rorty) وكان بعدهم (جون أوستن) فيلسوف جامعة أكسفورد الذي ألقى محاضرات (وليام جايمس) هادفًا إلى تخصيص فلسفي جديد.

ويعود الفضل في استحداث مصطلح التداولية في الثقافة الغربية إلى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز بيرس ت: 1839 Charles Peirce)، كما يرجع أوّل استعمال لمصطلح التداوليّة إلى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس) الذي قدّم سنة 1938 تعريفاً للتداوليّة في سياق تحديده للإطار العام لعلم العلامات، وذلك في مقال له ركز فيه على مختلف التخصصات التي تعالج اللغة وهي: (علم التركيب وعلم الدلالة والتداولية) ليصل إلى أن "التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات". وهو تعريف يتجاوز المجال اللساني ليشمل غيره من المجالات غير اللسانية (المجال السيميائي).[2]

وإذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى للتداولية يمكن أن نلمسها في (الفلسفة التحليلية)، وهي اتجاه فلسفي ركّز على موضوع اللغة، حيث ثارت على الفلسفة الكلاسيكية (الميتافيزيقية والطبيعية)، لتجعل مهام الفلسفة البحث في اللغة وتوضيحها. فكان تشكّل اللسانيّات التداوليّة درسًا جديدًا وغزيرًا لم يمتلك بعد حدودًا واضحة، لكنّه انبثق من ذلك التفكير الفلسفي في اللغة، وسرعان ما تجاوز ذلك ليعمل على صقل أدوات تحليله.

ويعد (فريجة ت:1925 G. Frege) مؤسس هذا الاتجاه الفلسفي، وقد تأثر به عدد من الفلاسفة منهم (هوسرل ت: 1938 E. Husserl) أو (كارناب ت: 1970 Carnap، وفيتغانشتاين ت: 1951 Wittgenstein)، و(أوستن J. Austin) و(سيرل J. Searle) وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلّمة عامة مشتركة مفادها أن فهم الإنسان لذاته يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات فلسفة اللغة واتجاهاتها.[3]

وتنقسم الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة أقسام رئيسة: [4]

1 - الوضعانية المنطقية:

[1] – انظر: ضبعي، النذير، **الأبعاد التداوليّة في مقامات الحريري**، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الآداب واللغة العربيّة (تخصّص اللسانيّات واللغة العربيّة)، كليّة الآداب واللغات (قسم الآداب واللغة العربيّة، جامعة محمّد خيضر- بسكرة، الجزائر، السنة الجامعيّة 2014-2015، ص ص7-11. وصحراوي، مسعود، **التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة (الأفعال الكلاميّة) في التراث اللساني العربي**، ط1 دار الطليعة، بيروت، 2005، ص ص18-26. وعمير، خميس فزاع وزميله، **نظريّات المنهج التداولي عند علماء جامعة أكسفورد (تحليل وصفي تطبيقي)، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيّات والاجتماع**، كلّيّة التربية/القائم، جامعة الأنبار، الأنبار- العراق ع: 5، أبريل 2016. ص4. وبوخشة، خديجة، **محاضرات في اللسانيّات التداوليّة**، مستوى السنة الثالثة ل م د LMD، المحاضرة الثالثة، ص ص19-20.

[2] – انظر: روبول، آن؛ وجاك موشلار، **التداوليّة اليوم علم جديد في التواصل**، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمّد الشيباني، مراجعة: لطيفة زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2003، ص29. وختام، جواد، **التداوليّة أصولها واتّجاهاتها**، دار كنوز المعرفة، عمّان – الأردن، ط1، 2016، ص20. وعكاشة، محمود، **النظريّة البرجماتيّة اللسانيّة التداوليّة**، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط1، 2013، ص ص 11-13.

[3] – انظر: لعور، آمنة، **الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف – دراسة تداوليّة**، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة – الجزائر، 2011، ص ص25-29.

[4] – انظر: صحراوي، **التداوليّة عند العلماء العرب**، ص18-26. وضبعي، **الأبعاد التداوليّة في مقام الحريري**، ص7-11.

رائد هذا الاتجاه (رودلف كارناب ت: 1970 Rudolf Carnap)، الذي تتلمذ على يد (فريجة ت: 1925 Frege) ويرى أصحاب هذا الاتجاه في طوره الأول أن اللغة الجديرة بالتحليل هي اللغة المثالية، لكن سرعان ما غير (كارناب) مواقفه ليهتم باللغات اليومية، عندما أحس أن اللغة ليست مجرد قواعد تُبنى بها الجمل.

2 - الظاهراتية اللغوية:

يُعدّ الفيلسوف الألماني (إيدموند هوسرل ت: 1938 Edmund Husserl) من أبرز رواد هذا الاتجاه، ويعود الفضل للظاهراتية في اكتشاف القصدية، التي تعدّ من أبرز الجوانب التداولية، غير أن هذه الفلسفة أغرقت في مسائل بعيدة عن الاستعمال اللغوي، بسبب نزعتها الفلسفية اللاواقعية، ولكنها جاءت بمبدأ إجرائي مفيدٍ جدًا في اللسانيات التداولية، وهو مبدأ القصدية.

3 - فلسفة اللغة العادية:

رائد هذا الاتجاه هو الفيلسوف النمساوي (لودفيغ فيتغنشتاين ت: 1951 Ludwig Wittgenstein)[1]، وقد اهتمت هذه الفلسفة بالحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في اللغات العادية.

وهذه الفلسفة ترى أن المعنى ليس ثابتاً ولا محدداً، وهي تعدّ المادة الأساسية للفلسفة في نظر (فيتغنشتاين)، لذلك أعطى لها أهمية بالغة، فإهمال الفلاسفة للغة برأيه سبب تلك التناقضات والخلافات بينهم.

وتهتم هذه الفلسفة باللغة العادية بوصفها المعبرة بشكل صادق عن التصورات والمفاهيم، لذلك لم يكتف (فيتغنشتاين) بالدعوة إلى تحليلها فحسب، بل دعا إلى الحكم بها على صحة وبطلان ما يُقال من عبارات.

ومحصلة ما سبق، أن هذا الاتجاه في صميم الدرس التداولي، فقد انبثقت من رحمه نظرية الأفعال الكلامية. أمّا التياران الأول والثاني (الوضعانية المنطقية، والظاهراتية اللغوية) فقد خرجا عن التداولية.

وقد اكتسبت أعمال (فيتغنشتاين) مكانتها الحقيقية بعدما تبناها فلاسفة (مدرسة اكسفورد) حيث تأثروا بها تأثراً كبيراً خاصة (أوستن) الذي بدا أثر (فيتغنشتاين) عليه واضحاً في كتابه (عندما يكون القول هو الفعل) وكذلك تلميذه (سيرل) في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف واتخاذها معاييرَ وأسساً في دراسة القوى المتضمنة في القول.

ومجمل القول إنّ الفلسفة التحليلية اهتمت باللغات الطبيعية، وباستعمالات اللغة، ومقاصد الكلام، وهو ما مهّد الأرضية لظهور (أفعال الكلام) على يد (أوستن) لتظهر بعدها نظريات أخرى كالقصدية، الملاءمة، الاستلزام، التخاطب وغيرها من النظريات التي كونت فيما بينها التداولية.

وفي مضمون (نظرية الأفعال الكلاميّة) نجد ما جاء حول بحث العلماء العرب القدامى لهذه الظاهرة في كتب التراث اللغوي العربي القديم، حيث نجدهم قد توسّعوا في بحث الظاهرة وتعمّقوا في تحليل مفاهيمها، من خلال تطوير أسس التمييز بين الخبر والإنشاء، إذ إنّ ظاهرة (الأفعال الكلاميّة) تندرج تحت مباحث علم المعاني، وتحديدًا ضمن الظاهرة الأسلوبيّة المعنونة بـ (الخبر والإنشاء). وبذلك تعتبر (نظريّة الخبر والإنشاء) – من الجانب المعرفي العام – مكافئة لمفهوم (الأفعال الكلاميّة) عند المعاصرين. وسيأتي في نظرية الخبر والإنشاء مبحث خاصٌّ لاحق.

[1] – انظر: فتغنشتاين، لودفيك، **تحقيقات فلسفيّة**، ترجمة: عبد الرزّاق بنّور، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت – لبنان، ط1، 2007، ص10.

فاللسانيات التداولية إذن مصطلح حديث لطريقة قديمة في التفكير، بدأت على يد (سقراط) ثم تبعه (أرسطو) والرواقيون من بعده، بيد أنّها لم تظهر إلى الوجود باعتبارها نظرية للفلسفة إلا على يد (باركلي ت: 1753 G. Berkeley)، تغذّيها طائفة من العلوم على رأسها: الفلسفة واللسانيات، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس وعلم الاجتماع.

ثالثًا: الدرجات الثلاث للتداولية:

تتسم المباحث التداولية بسمة الثراء الشديد، لذا قامت (فرانسواز ارمينكو) بعرض أهم المقاربات التداولية على برنامج (هنسن) الذي أسس تداولية ذات درجات ثلاث.حاول هنسن التوحيد بين مختلف أجزاء التداولية، من خلال هذه الدرجات الثلاث التي تحدد فكرة المرور التدريجي من مستوى إلى آخر.[1]

ومعظم النظريات التي انبثقت عن التداوليّة تركّز على السّياق؛ إذ لا بد من حضور السياق في العمليّة التواصليّة، فالسياق يمثّل العنصر الأساس وذا الأهمّية الكبرى في التداوليّة، فهو الذي يحدّد اتجاه اللغة، ليختار لها الخيارات الأنسب مما هو متاح، وهذا ما دعا ماكس بلاك إلى تسمية التداوليّة بالنظريّة السياقيّة، وقد أفضى ذلك إلى ظهور ثلاثة تيّارات مختلفة ومتداخلة في الوقت نفسه، تشكّل النسق العام لما يسمى بنظريات التداولية، وهذه الدرجات هي[2]:

1. تداولية الدرجة الأولى: دراسة الرموز الإرشادية

وتتعلق بالعلامات الإرشادية من مثل (أنا، هنا، الآن) التي تتجلى في الأقوال وتتضح مرجعيتها في سياق الحديث، إذ تتحدد هذه الرموز من خلال السّياق الذي تُوظّف فيه، وتتضح أكثر في إطار العلاقة بين المتخاطبين والزمان والمكان، حيث تختلف الضمائر وإشارات الزمان والمكان حسب ظروف استعمالها.

2. تداولية الدرجة الثانية: المعنى الحرفي والمعنى التواصلي

وتدرس الدلالة الضمنية للقول بتجاوز المعنى الحرفي، أي قد يكون معنى الجملة مبهماً بالرغم من عدم احتوائها على إشاريات، ومن هنا نجد أنّ تداوليّة الدرجة الثانية تسعى إلى معرفة كيفيّة انتقال الدلالة من المستوى الصّريح إلى المستوى التلميحي.

والنظريات التي تتناول هذا النّمط بالدراسة هي: نظريّة قوانين الخطاب، وأحكام أو مسلّمات المحادثة وما ينبثق عنها من ظواهر خطابيّة كالافتراض المسبق والأقوال المضمرة والحِجاج. أما السّياق في هذا النّمط فهو مجمل المعلومات والمعتقدات التي يشترك فيها المتخاطبون.

ولذا فللوصول إلى قصديّة العبارة اللغويّة لابدّ من تجاوز المعنى الحرفي، والبحث عمّا يتضمّنه القول من معنى غير مباشر.

3. تداولية الدرجة الثالثة: نظرية الأفعال الكلامية [3]

وتشتمل الدراسات التي تضم الأفعال الكلامية، وتنطلق من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة ضمن وضعيات محددة تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية. وتختلف هذه الأبعاد حسب الأغراض التي تتحقق من الإنجاز اللغوي، ويتعلق الأمر بمعرفة ما يتم إنجازه عبر استعمال اللغة في وضعية تواصلية معينة.

---

[1] انظر: الحباشة، صابر، **الأبعاد التداوليّة في شروح التلخيص للقزويني**، الدار المتوسطيّة للنشر، تونس، ط1، 2009، ص ص43-45. ورحيمة، شيتر، **التداوليّة وآفاق التحليل، مجلّة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة**، ع: 2-3، قسم اللغة العربية، جامعة محمّد خيضر/بسكرة- الجزائر، 2008، ص ص3-4.

[2] انظر: رحيمة، شيتر، **التداوليّة وآفاق التحليل، مجلّة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة**، ع: 2-3، 2008، ص ص3-4. بوخشة، خديجة، **محاضرات في اللسانيات التداوليّة**، المحاضرة الرابعة (الدرجات الثلاث للتداوليّة)، ص ص22-23.

[3] – انظر: ختام، **التداوليّة أصولها واتّجاهاتها**، ص ص82-92.

ويُعَدّ (أوستين) من أوائل المؤسسين لنظريّة أفعال الكلام، التي قام بتطبيقها على الخطاب الأدبي عند (ويليام جيمس)، وقدّم تمييزاتٍ دقيقة لأفعال الكلام. ثمّ طوّر تلميذه (سيرل) تلك التصنيفات.

ومن خلال الدرجات الثلاث للتداوليّة نلحظ تداخل تلك النّظريّات وترابطها فيما بينها، مما يشير إلى أهمّيّة التداوليّة كمشروع شاسع يهتمّ بالخطاب والتواصل بشكل عام، وينطوي على قدرٍ كبيرٍ ومتعدّدٍ من المحاور والآليّات، وكذا النّظريّات التي اكتنفتها التداوليّة وتبنّتها بالسير وفقها في تعاملها مع اللغة، كالنظريّة الحجاجيّة، والنظريّة التلفظيّة، ونظريّة الملاءمة... إلخ.

المبحث الثاني: أبرز النظريّات التداوليّة: [1]

تقوم التداوليّة المعاصرة على نظريّات عديدة، كثيرًا ما يتداولها الدّارسون المعاصرون، وهي: الفعل الكلامي، القصدية، الاستلزام الحواري(المحادثي)، متضمّنات القول، ونظريّة الملاءمة. وفيما يأتي توضيحٌ موجزٌ لها:

1. متضمّنات القول:

مفهوم تداولي يتعلّق برصد جملة من الظواهر المتعلّقة بجوانب ضمنية وخفيّة من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامّة كسياق الحال وغيره، ومن أهمّها:

أ. الافتراض المسبق:

في كلّ تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتّفق عليها بينهم، وهي التي تشكّل الخلفيّة التواصليّة الضروريّة لتحقيق النّجاح في عمليّة التواصل، وهي محتواة ضمن الّسّياقات والبُنى التركيبيّة العامّة.

فمثلًا، في الملفوظ 1: أغلق النّافذة، والملفوظ 2: لا تغلق النّافذة. نجد أنّ في كليهما خلفيّة (افتراض مسبق) مضمونها أنّ (النّافذة مفتوحة).

ويرى التداوليّون أنّ (الافتراضات المسبقة) ذات أهمّيّة قصوى في عمليّة التّواصل والإبلاغ.

ب. الأقوال المضمرة:

وهذه ترتبط بوضعيّة الخطاب ومقامه، على عكس (الافتراض المسبق) الذي يحدّد على أساس معطيات لغويّة. تقول: أوركيوني:"القول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيّات سياق الحديث".

ومثال ذلك قول القائل: (إنّ السماءَ ممطرةٌ)

إنّ السامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أنّ القائل يدعوه إلى:

- المكوث في بيته.
- أو الإسراع إلى عمله حتّى لا يفوته الموعد.
- أو الانتظار والتريّث حتّى يتوقّف المطر.
- أو عدم نسيان مظلّته عند الخروج.

[1] – انظر: بوخشة، خديجة، **محاضرات في اللسانيّات التداوليّة**، المحاضرة الأولى: الفلسفة التحليليّة والفكر التّداولي، ص ص3-5. وصحراوي، **التداولية عند العلماء العرب**، ص ص30-44. وعكاشة، محمود، **النظريّة البراجماتيّة اللسانيّة (التداوليّة)**، ص84-117. ولعور، **الأفعال الكلامية في سورة الكهف – دراسة تداولية**، ص ص48-53.

وقائمة التأويلات ماتزال مفتوحة مع تعدّد السّياقات والطّبقات المقاميّة التي ينجز ضمنها الخطاب. والفرق بينه وبين (الافتراض المسبق) أنّ الأول وليد السّياق الكلامي، والثاني وليد ملابسات الخطاب.

2. الاستلزام الحواري (أو المحادثي):[1]

وهو ما لاحظه بعض فلاسفة اللغة واللسانيين التداوليين وبخاصّة الفيلسوف(غرايس) من أنّ جمل اللغات الطّبيعيّة، في بعض المقامات، قد تدلّ على معانٍ غير محتواها القضوي.

ويتضح ذلك من خلال الحوار الآتي:

- الأستاذ (أ): هل الطالب (ج) مستعّد لمتابعة دراسته الجامعيّة في قسم الفلسفة؟

- الأستاذ (ب): إنّ الطالب (ج) لاعبُ كرةٍ ممتاز.

رأى الفيلسوف (غرايس) أنّنا إذا تأمّلنا الحمولة الدلاليّة لإجابة الأستاذ (ب)، وجدنا أنّها تدلّ على معنيين اثنين في الوقت نفسه، أحدهما حرفيّ والآخر مستلزم. فمعناها الحرفي أنّ الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعناها الاستلزامي أنّ الطالب المذكور ليس مستعدًّا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة.

وهذه الظاهرة اللغويّة سمّاها غرايس بـ (الاستلزام الحواري)، واقترح نظريّته المحادثيّة التي تنصّ على أنّ التواصل الكلامي محكومٌ بمبدأ عام هو (مبدأ التعاون) وبمسلّمات حواريّة، ويقوم (مبدأ التعاون) على أربع مسلّمات، وهي كما يلي:

أ. مسلّمة القدْر.

ب. مسلّمة الكيف.

ج. مسلّمة الملاءمة.

د. مسلّمة الجهة.

ويقترح غرايس تنميطًا للعبارات اللغويّة يقوم على المقابلات الآتية التي تنقسم الحمولة الدلاليّة للعبارة على أساسها إلى مايأتي:

معانٍ صريحة: وهي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وتشمل:

أ. المحتوى القضوي.

ب. القوّة الإنجازيّة الحرفيّة.

معانٍ ضمنيّة: وهي المعاني التي لاتدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكن للسياق دخلٌ في تحديدها والتوجيه إليها، وتشمل:

أ. معاني عُرفيّة.

ب. معاني حواريّة.

3. نظريّة الملاءمة: [2]

[1] – انظر: ختام، **التداولية أصولها واتّجاهاتها**، ص ص96-100.

[2] – انظر: ختام، **التداولية أصولها واتّجاهاتها**، ص ص117-129.

وهي نظريّة تداوليّة معرفيّة، أرسى معالمها كلّ من اللسانية البريطانية (ديردر ولسن Deirdre Wilson) والفرنسي (دان سبربر)، وتأتي أهمّيتها التداوليّة من أمرين:

- أنّها تنتمي إلى العلوم المعرفيّة الإدراكيّة.

- أنّها ولأوّل مرّة منذ ظهور الأفكار والمفاهيم التداوليّة، تبيّن بدقّة موقعها من اللسانيات، وخصوصًا موقعها من علم التراكيب.

فنظرية الملاءمة تدمج إذن بين نزعتين متناقضتين، إذ تفسّر الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقاميّة المختلفة، وتعدّ في الوقت نفسه نظريّة إدراكيّة. وسبب ذلك هو أنّها تدمج مشروعين معرفيين تستمدّ منهما:

- مجال علم النفس المعرفي، وبخاصّة النظريّة القالبيّة لـ (فودور) 1983.

- مجال فلسفة اللغة، وبخاصّة النظريّة الحواريّة لـ (غرايس) 1975.

4. الفعل الكلاميّ:[1]

وهو ما أصبح النواة المركزيّة في الكثير من الأعمال التداوليّة، وفحواه أنّه كلُّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. كما يعدّ نشاطًا ماديًّا نحويًّا يتوسّل أفعالًا قوليّة لتحقيق أغراضٍ إنجازيّةٍ (كالطلب، والأمر، والوعد، والوعيد...إلخ)، وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقّي (كالرّفض والقبول). كما يطمح هذا الفعل إلى أن يكون فعلًا تأثيريًّا، أي ذا تأثيرٍ في المخاطب، اجتماعيًّا أو مؤسساتيًّا، ومن ثمّ إنجاز شيءٍ ما.

هذا، وقد توصّل (أوستين) في نهاية المطاف إلى تقسيم (الفعل الكلاميّ الكامل) إلى ثلاثة (أفعال) فرعيّة، هي: [2]

أ. فعل القول (أو الفعل اللغوي)

ب. الفعل المتضمّن في القول.

ج. الفعل النّاتج عن القول.

ومن خصائص الفعل الكلامي أنّه فعلٌ إنجازيّ وتأثيريّ.

والفعل الكلاميّ هو ما استثمره كلٌّ من الأصوليين والنّحاة العرب، فعمل الأصوليّون به مستثمرين أسلوبي الخبر والإنشاء، وكذلك النّحاة من خلال استثماره في المسند والمسند إليه والأساليب النّحويّة والأساليب العربيّة وغيرها. فقد بحث العلماء العرب حول ظاهرة (الأفعال الكلاميّة) كما نجد ذلك في كتب التراث اللغوي العربي، وتوسعوا في ذلك وتعمّقوا من خلال تطوير أسس التمييز بين الخبر والإنشاء، إذ تكافئ (نظرية الخبر والإنشاء) عند العرب، مصطلح (الأفعال الكلاميّة) عند المعاصرين. وقد كانت ظاهرة (الخبر والإنشاء) في التراث العربي حقلًا مشتركًا بين العديد من التخصّصات العلميّة، فقد اشتغل ببحثها الفلاسفة والبلاغيّون والنّحاة والأصوليّون، حتّى أصبح متعيّنًا على من يدرسها أن يتتبّع فروعها وتطبيقاتها في مؤلفات عدد من العلماء الذين أسّسوا هذه النظريّة في تراثنا أو الذين عمّقوا البحث فيها، من أمثال: أبي بشر عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه (ت حوالى 180هـ)، وأبي نصر الفارابي

[1] – انظر: صحراوي، **التداولية عند العلماء العرب**، ص ص203-221.

[2] – انظر: قسميوري، كريمة، **الأفعال الكلاميّة غير المباشرة من خلال شعر الحكمة – ديوان زُهير بن أبي سُلمى أنموذجًا**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2016، ص ص23-25.

(ت338هـ)، والقاضي عبدالجبّار الهمذاني المعتزلي (ت415هـ)، وأبي عليّ بن سينا (ت428هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، ونجم الدّين القزويني (ت493هـ)، وأبي يعقوب السكاكي (ت626هـ)، وسيف الدّين الآمدي (ت631هـ)، وشهاب الدّين القرافي (ت684هـ)، ورضيّ الدّين الإستراباذي (ت686هـ)، ومحمّد بن عليّ الحرجاني (ت729هـ)، وجلال الدّين الخطيب القزويني (ت739هـ)، والشريف علي بن محمّد الجرجاني (ت816هـ)، وسعد الدّين التفتازاني (ت حوالى 792هـ) وشُرّاح مختصره، وغيرهم. وهؤلاء جميعًا، وإن اختلفت تخصّصاتهم، فإنّهم يلتقون في كونهم جميعًا توغّلوا في استعمال أدوات التّحليل المنطقيّة، وهي على قدرٍ كبير من الدّقّة والتجريد، حتى أنّه يستعصي على من لم يتمرّس بأدواتهم تلك أن يتابعهم في جُلّ ما كتبوه إلّا بصعوبة وإعنات. [1]

المبحث الثالث: مظاهر الدرس التداولي في فكر ومؤلفات العرب القدامى: [2]

لابدّ من التعريج على التراث العربي لتتبع دراسة أساليب الكلام، وأقسامه عند النّحاة والبلاغيين وعلماء اللغة، إذ تعتبر أساليب الكلام الخبريّة والإنشائيّة ومعانيهما البلاغيّة من توكيد، وإغراء، وتحذير ووعيد، واستغاثة وندبة، وعرض وتحضيض... ووظائفها التواصليّة كلّها من الأفعال الكلاميّة التي درسها اللغويون قديمًا تحت أبوابها النّحويّة المعروفة، مما يدلّ على جهودهم المطبوعة بسِماتٍ تّداوليّة، والتي تتجلّى في أعمال بعض النّحاة على غرار عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) والرّضي الاستراباذي (ت686هـ) اللذان تبرز "عنايتهما الكبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب خبرًا كان أم إنشاءً، وبين معناه الإبلاغي ووظيفته التواصليّة، مع حرصهما القويّ والمتكرر على الاهتمام بـ(المعاني) و(الأغراض) البلاغيّة المتوخّاة من (الخطاب)، وإصرارهما على أنّ البُنى التركيبيّة تابعة للوظيفة التواصليّة، وليس العكس، فسلكا منهجًا متميّزًا في تحليل بعض الظواهر التركيبيّة: كالتقديم والتأخير، والتعيين والإثبات والنّفي... والّتي لا تعدو أن تكون غايات تواصليّة يسعى المتكلّم إلى تحقيقها، أمّا بلغة المعاصرين فهي أفعال كلاميّة، طالما أنّه يُراد بها تخصيص الخطاب، أو الحرص على تضمين الخطاب فائدة تواصليّة معيّنة". [3]

وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني (471هـ): "إنّ النّاس يكلّم بعضهم بعضًا ليعرف السامع غرض المتكلّم ومقصده الرّامي والهادف إليه" [4]. فهو يؤكّد على أنّ معاني الكلام هي مقاصد وأغراض يُنشئها المتكلّم في نفسه أولًا، كما حدّد تلك المعاني بالخبر، الأمر، والنّهي، الاستفهام والتعجّب... وهذا يعني أنّ فعل الكلام له صلة بما يمكن أن نسمّيه "علم المقاصد." أمّا ابن جنّي (392هـ) فيراه "كلّ لفظ استعمل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام... فكلّ كلامٍ قول وليس كلُّ قولٍ كلامًا" [5]. إذ يُفهم من هذا أنّ الكلام هو ما يؤدي معنى مفيدًا مستقلًّا بنفسه، أمّا ما لا يؤدي ذلك فسمّاه ابن جنّي القول.

ويبدو أنّ بعض النّحاة العرب لم يفهموا من اللغة أنّها منظومةٌ من القواعد المجرّدة فحسب، وإنّما فهموا منها أيضًا أنّها "لفظ معيّن" يؤديه "متكلّمٌ معيّن" في "مقامٍ معيّن" لأداء "غرضٍ تواصليٍّ إبلاغيّ معيّن" [6]. وهذا ما يعتبر ملمحًا تداوليًّا واضحًا لديهم، إذ فعل الكلام عندهم يعدّ القلب النّابض في العملية التواصلية، فعباراتٌ من قبيل: مراعاة قصد المتكلّم، وحال السّامع، أو الإفادة ومراعاة الغرض والمقام،

---

[1] – انظر: لعور، **الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف – دراسة تداوليّة**، ص ص57-58. صحراوي، **التداولية عند العرب**، 205.

[2] – انظر: لعور، **الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف – دراسة تداوليّة**، ص ص29-32، ص ص57-102.

[3] – صحراوي، **التداوليّة عند العرب**، ص 219.

[4] – الجرجاني، عبد القاهر، **كتاب دلائل الإعجاز**، تعليق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص 408.

[5] – ابن جنّي، عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمّد علي النّجّار، دار الكتب المصرية، النّاشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1913، 1/ 17.

[6] – صحراوي، **التداوليّة عد العرب**، ص 174.

تعدّ عند المعاصرين أسسًا تداوليّةً، ومن ذلك إشارة سيبويه (ت180هـ) والخليل (ت175هـ) والرّضي الاستراباذي (ت686هـ) إلى المعاني المتعلّقة بإنجازيّة الأساليب العربيّة المختلفة بخلفيّة تداوليّة، كما تطرّقوا إلى كثير من الأفعال الكلاميّة: كفعل التأكيد، وفعل الإغراء وفعل التّحذير وفعل النّداء وفعل الاستغاثة والنّدبة. [1]

وذكر سيبويه (ت180هـ) أنّ القسم لا يعدو أن يكون تأكيدًا للكلام، وأنّ للاستفهام عدّة وظائفٍ تواصليّةٍ منها التنبيه، ومن ذلك إشارة الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) والرّضي الاستراباذي (ت686هـ) إلى أنّ القسم لا يراد لذاته، وإنّما يراد به إمّا الإلحاح في الطلب، وإمّا تأكيد الخبر. [2]

صفوة القول أنّ دراسة اللغويين القدامى للأفعال الكلاميّة غير المباشرة، شكّلت تقدّمًا لامثيل له في دراساتهم النّحويّة والأسلوبيّة؛ إذ تفطّنوا إليها محاولين تقعيدها بشتّى الوسائل والسّبل، بغية فهم واستيعاب الآليات المتحكّمة في إنجازها وتحقيقها، فاقتراحات السّكاكي (ت626هـ) البلاغيّة قد امتازت بالدّقة والقدرة على التنبُّؤ، لكنّها بقيت مجرّد تصنيفاتٍ للأفعال لا تنفي حقيقة وجود بعض الثّغرات بها، وإذا كان علماء البلاغة قد أهملوا باب الإنشاء؛ فإنّ علماء أصول الفقه قد تحدّثوا في "باب الأمر والنّهي" حديثًا مستفيضًا عن هذا الفعل، بل ذهبوا إلى تصنيفه أيَضًا. [3]

ويُلحظ أنّ مفهوم (السياق) في الدرس التداولي كان جاريًا في الدرس البلاغي التنظيري والتطبيقي في القرن السابع الهجري وما قبله تحت مسمّى (مقتضى الحال) و(المقام)، وقد ذكر ذلك كلٌّ من عبد الملك مرتاض وصلاح فضل بأنّ اهتمام الدرس البلاغي العربي بـ(المقام) مبكّرٌ جدًّا، وأنّ الاطّلاع على المنجز العربي البلاغي يؤكّد ممارستهم المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بوصفه فلسفة وعلمًا، أو رؤيةً واتّجاهًا أمريكيًّا وأوروبيًّا. [4]

ويطلق السياق على مفهومين: الأول السياق اللغوي، والثاني سياق الحال، أو سياق الموقف، والمفهوم الأول كان الأكثر شيوعا في البحث المعاصر، وتنهض "النظرية التداولية" للنص على مفهوم (مقام الخطاب).

ولما للسياق من تعدد واتساع، فإنه تم الاصطلاح على نوعين: (سياق النص) و(سياق المقام). وهذا الأخير (سياق المقام) هو ما يعني البحث الآن بهذه الصيغة أو بصيغة أخرى. وهو ما توجه إليه الدرسان التداولي والبلاغي، حديثاً وقديماً. [5]

و(المقام)، في إطار الدرس البلاغي العربي، هو على النحو الذي يحدده به محمد العمري، حين يقول: "يتسع المقام ليشمل مجموع الشروط الخارجية المحيطة بعملية إنتاج الخطاب شفوياً كان أم مكتوباً. وكثيراً ما ارتبط (المقام) في البلاغة العربية... بالحديث عن أقدار السامعين ومقتضى أحوالهم" ما يدل على ارتباطه ارتباطاً مباشراً بالخطاب الإقناعي، وهو الخطاب المقامي بالمفهوم الضيق والمحدد للمقام. وترد في الدرس البلاغي كلمات تشترك في تأدية المفهوم من (المقام) كـ(الحال) أو (مقتضى الحال) أثناء

---

[1] – انظر: روقاب، جميلة، "نظريّة أفعال الكلام بين التراث العربي واللسانيات التّداوليّة"، **مجلة الأكاديميّة للدراسات الاجتماعيّة والإنسانيّة**، ع: 15، قسم اللغة العربيّة – كلّية الآداب واللغات، جامعة حسيبة بن بو علي – الشلف، دت، ص 10.

[2] – انظر: صحراوي، **التداولية عند العرب**، ص 220-221.

[3] – انظر: روقاب، **نظريّة أفعال الكلام بين التراث العربي واللسانيات التّداوليّة**، ص 10.

[4] – انظر: لخضر، العرابي، **المقام في الدرس البلاغي**، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، مج: 55، ع: 1-2، أبريل 2019، ص88-96. وخوية، رابح، **التمظهرات التداوليّة في البلاغة العربية**، الأرشيف العربي العلمي، جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريرج – الجزائر، 2018، ص4-5.

[5] – انظر: لخضر، العرابي، **المقام في الدرس البلاغي**، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، مج: 55، ع:1-2، أبريل 2019، ص88-96. وخوية، **التمظهرات التداوليّة في البلاغة العربية**، ص9-10.

تعريف البلاغة أو علم المعاني. ففي كتاب (الإيضاح في علوم البلاغة) يعرف القزويني البلاغة بتعبيره، فيقول:" أما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته". ونجد تعريف المحدثين للبلاغة واضحاً في كتاب (البلاغة الواضحة) لعلي الجارم ومصطفى أمين، فهي عندهم: "تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون". إن مراعاة (مقتضى الحال) أو (مطابقة الكلام له) أو (ملاءمته) في تعريف البلاغة تكشف عن البعد التداولي الكامن فيه، فالكلام حين إنتاجه يتأثر بكل العناصر التي تكون مقامه من ناحية، وكذا فهمه وتحليل معناه لا يكتمل إلا باستدعاء كل تلك العناصر المقامية من ناحية أخرى. [1]

المبحث الرابع: السياقات التداوليّة وأثرها في الخطاب القرآني: [2]

تُعدّ نظريّة أفعال الكلام من أهم نتاجات الدرس اللساني التّداولي، ومحورًا بارزًا من محاوره الكبرى، وتحوّلًا منهجيًّا في البحث اللغوي، حيثُ تستند هذه النّظريّة على عدّة أسس بنيويّة، أهمها الحوار، إنّها النّمط الثّالث من أنماط اللسانيّات التداوليّة، تشمل دراسة العناصر اللغويّة والبنيات الذّهنيّة التي يتوقّف تحديدها الدّلالي المرجعي على علاقة الأفعال بالأقوال بحسب السّياق وحال الخطاب.

ويتجسّد الفعل اللغوي في السلسلة التاليّة:

- الفعل التّلفظي: يتلفّظ المرسل بفعل لغوي ما للمرسل إليه في السّياق.

- الفعل الصّوتي: يقول المرسل للمرسل إليه قولًا في سياق.

- الفعل الإنجازي: يفعل المرسل فعلًا في سياق.

- الفعل التأثيري: يؤثّرالمرسل على المرسل إليه بطريقةٍ ما.

لقد حاول مؤسسو النّظريّة بدايةً تجميع تلك الأفعال الكلاميّة بعد تحديد مستويات تحليلها، ومن ثمّ حصرها ضمن تفريعات كبرى، بوصفها أدوات إجرائية نفعيّة في العمليّة التواصليّة.

عند محاولة النّاس التعبير عن أنفسهم فإنّهم لا يُنشئون ألفاظًا تحوي بنًى نحويّةً وكلماتٍ فقط، وإنّما ينجزون أفعالًا عبر هذه الألفاظ. وهذه الأفعال المنجزة تُعرّف من خلال الألفاظ عمومًا بأفعال الكلام. وتُعطى في اللغة غالبًا أوصافًا أكثر تحديدًا مثل الاعتذار والشكوى والإطراء والدّعوة والوعد والطّلب.

يتكوّن الفعل المنجز من خلال إنشاء لفظ معين من ثلاثة أفعال مرتبطة. تبدأ بالفعل التعبيري، وهو فعل اللفظ الأساس، ويلزمه تمكّن الفرد من تكوين الأصوات والكلمات بيسرٍ وسهولة لإيجاد ألفاظٍ مفيدة في لغةٍ ما. وبما أننا لا نقوم بإنشاء ألفاظٍ صحيحة البنية دون غاية، فنحن نصوغ لفظًا يؤدي وظيفةً نريد إتمامها، وهذا هو البعد الثّاني المتمثّل في الفعل الوظيفي، الذي يُنجَز عبر قوّة اللفظ التّواصليّة. ونحن بالطبع لا نُنشئ لفظًا ذا وظيفةٍ معيّنة دون أن نقصد أن يكون له تأثيرٌ معيّن، وهذا هو البعد الثّالث المتمثّل في الفعل التأثيري.

ومن بين هذه الأبعاد الثّلاثة، ينصبّ التركيز على القوّة الوظيفيّة. إذ هي جوهر الموضوع.

---

[1] – انظر: خوية، **التمظهرات التداوليّة في البلاغة العربية**، ص10–15. وصحراوي، **التداولية عند العرب**، ص ص185–186.

[2] – انظر: رحيمة، شيتر، "**التداوليّة وآفاق التّحليل**"، قسم الأدب العربي، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2008، **مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة**، ع:2–3، ص ص4–5. ويول، جورج، **التداوليّة**، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان الرباط، 2010، ص81–84. وروقاب، جميلة، **نظريّة أفعال الكلام بين التراث العربي واللسانيات التّداوليّة**، ص ص 9–10.

وفي مختلف الأفعال الثلاثة السابقة وأبعادها المتنوّعة، وكذا الدرجات التداوليّة الثلاث السابقة لابدّ من حضور السياق، مما دعا (ماكس بلاك) لتسمية التداوليّة بالنّظريّة السياقيّة. إذ يحتل السياق أهمّيّة كبرى في التداوليّة، لأنّه يسهم في تحديد الخيارات اللغويّة من تلك المتاحة، فتحديد السّياق وعناصره أمرٌ صعب. فيشير (محمّد خطابي) إلى أنّ العناصر السياقيّة قد تتسع – حسب هايمس – لتشمل: المتكلّم، المخاطب، المشاركين، الموضوع، القناة، المقام، السنن، جنس الرسالة، الحدث، المقصد. لكنّه يرى أنّه ليس من الضروري الاحتفاظ بها جميعًا. إذ يمكن بحسب براون ويول الاكتفاء بـ: المتكلّم، المخاطب، الرسالة، الزمان، المكان، ونوع الرسالة. لأنّه من الضروري معرفة تلك العناصر على الأقل.

وفي درجات التداوليّة السابقة التي قسمتها ارمينكو، نجد أنّها تتباين تبعًا لتباين السياق، مما ينبئ عن أنواع متعدّدة من السّياق يمكن حصرها كما أشارت الجهود العلميّة فيما يأتي:

1 - السياق النّصّي: وهو سياق القرائن أو ما يسمى بنحو النّصّ.

2 - السّياق الوجودي: هو السياق المرجعي، إذ يعدّ المرسل، والمرسل إليه، وموقعهم الزّماني والمكاني، من مؤشرات هذا السياق.

3 - السّياق المقامي: وهو السياق الممثّل في الوسيط الثقافي، حيث يتضمّن غاياتٍ تتقاسمه شخصيّات تنتمي إلى الثقافة نفسها. ومثاله: المحادثة الدائرة بين طبيبين حول حالةٍ مرضيّةٍ ما.

4 - سياق الفعل: وهو سياق يضمّ الأفعال اللغويّة التي هي جزء من السياق المقامي، والتي يقصد المرسل من إنجازها أنْ يدرك المرسل إليه هذا القصد، مما يولّد سياقًا تواصليًّا بينهما.

5 - السّياق النّفسي: وينتج عن دمج الحالات الذهنيّة المتمثلة في الخطاب والفعل اللغوي مع الحالة النفسيّة في نظريّةِ تداوليّة اللغة، لتكوّن السياق النفسي لإنتاج اللغة وفهمها.

وهذه الأنواع المختلفة من السّياق تترابط فيما بينها في علائق تعمل على تسهيل التفسير التداولي للقضايا والمواقف التواصليّة. وهذا ما يعطي السياق دورًا بالغ الأهمّيّة في تحديد المعنى، أو ترجيحه على حساب معنًى آخر، كما يتحكّم أيضًا في تبديل المواقف التواصليّة وتحوّلها من حالٍ إلى آخر.

وفيما يأتي نموذجٌ تطبيقيٌّ يوضّح مدى تأثير السياق التداولي والأفعال الإنجازية المرافقة له في تغيّر الأحداث والمواقف، وذلك بالتطبيق على الخطاب القرآني، في ضوء سورة الكهف (قصّة موسى – عليه السلام – مع العبد الصّالح نموذجًا) [1] بتحليلها تحليلًا تداوليًا، باستثمار أنواع السياقات التداوليّة؛ ليتم بذلك توضيح أهمية السّياق في التّواصل، وكيفية تغييره لمواقف المتخاطبين، ولرصد تغير المواقف تبعاً لتغيّر السّياق.

وقبل الشروع في التحليل يجدر بنا التعريج على قصّة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح؛ للوقوف على أحداثها بوجهٍ عام، فهي قصّةٌ جاءت ضمن سلسلةٍ من القصص الواردة في سورة الكهف، وهي سورة مكيّة، لها فضلٌ في العصمة من فتنة الدجّال، وهذه القصّة تسرد أحداث التقاء سيّدنا موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح، الذي آتاه الله من العلم ما لم يحط به موسى، فقرر موسى الرحيل إليه، ومصاحبته للتعلّم منه، وقال لفتاه (لا أبرح)، وسأظلّ موصلًا المسير (حتّى أبلغ مجمع البحرين) حيث

[1] – انظر: خضر، محمّد شرف، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، إشراف: عبد الرحيم محمود زلط وآخرون، جامعة طنطا، مصر، ط1، 2008، ص ص40-41، ص ص106، ص145. ورحيمة، شيتر، **التداوليّة وآفاق التّحليل**، قسم الأدب العربي، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2008، مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ع: 2-3، ص ص6-7.

يوجد العبد الصالح، وقال: (أو أمضي حقبًا) أي حتى لو كلّفه ذلك المسير حقبًا[1] من الزمان. وحين التقيا وتعارفا، قال له موسى أتيتك لتعلّمني (مما عُلّمت رُشدا)، (قال إنّك لن تستطيع معي صبرا)، فقال موسى (ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرا)، قال له العبد الصالح (فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتّى أُحدث لك منه ذكرا). ثم يكشف النصّ عن (فعل محوري) وهو فعل الانطلاق، الذي تكرر ثلاث مرّات خلال الرّحلة، إذ المرّة الثّالثة كانت هي الأخيرة التي بلغ فيها الخضر العذر في مفارقة موسى عليه السلام بسبب إخلاله بالوعد، ولأنّ موسى شرط عند الموقف الثاني (قتل الغلام) أنّه إن سأل العبد الصالح عن شيءٍ بعدها فلا يصاحبه، وحين لم يستطع موسى الصبر، قال له العبد الصالح (هذا فراق بيني وبينك)، (سأنبّئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا). [2]

وتبعًا لفعل الانطلاق، وما يليه من أفعالٍ مثيرة (إنجازيّة وتأثيريّة) تغيّر مجرى الأحداث في المواقف الثلاث، فإنّه يمكن تقسيم السّياق إلى ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: ويتمثّل في قوله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿71﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73)﴾ [الكهف: 65-73]

السياق القبلي: سياق قبل الانطلاق الأول، عناصره موسى عليه السلام وغلامه والعبد الصّالح، وموضوعه (خرق السفينة)، ويتحدد العنصر الزّماني بالزمن الذي يلي فعل (الركوب): "فانطلقا حتّى إذا ركبا في السّفينة"، وفعل الاستنكار الذي رافقه فعل القول (الفعل الكلامي)، إذ يستنكر موسى -عليه السلام- على العبد الصّالح فعله، باستفهامه الاستنكاري: (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)؛ وهذا ما استدعى ردّة فعلٍ تمثّلت في جانبين:

- جانب العبد الصّالح، وتمثّل التأثير الكلامي لديه في (معاتبته موسى -عليه السلام- لخرقه وعده بعدم التدخّل في سلوكه بسؤاله الاستنكاري) فجاء بالقول باستفهامٍ استنكاريّ (ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا)، والذي نبّه موسى -عليه السلام- إلى ما قبل السياق من محاولة العبد الصّالح إثناءه عن مرافقته؛ لعلمه بعدم قدرة موسى على استيعاب ما قد يحدث أمامه من أفعال غريبة تصدر من العبد الصّالح لا يستطيع تفسيرها، والشرط الذي -بوعده عدم إخلافه إيّاه- تكون له مرافقة العبد الصّالح، وإلّا تنتهي الصّحبة.

- وجانب موسى -عليه السلام- هنا يتمثّل حتمًا في (اعترافه وتبريره موقفه بالنسيان): " لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا".

تغير السياق القبلي: سياق بعد الانطلاق، إذ حدث تغيير في العناصر الشخصية بإضافة ركّاب السفينة وأصحابها، وتمّ تحديد العنصر المكاني (عند الركوب): "حتّى إذا ركبا في السّفينة"، كما أعدت عناصر ترصد بها أثر تغيّر السّياق (خرق العبد الصّالح للسفينة)، ورصدت لحظةً زمنية محددة (لحظة اعتراض

[1] – الحقبة: روي عن عبد الله بن عمرو أنّه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفًا، وقال عليّ بن أبي طلحة، عن عبّاس بأنّ الحقبة هي الدهر. انظر: ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1982، 92/3.

[2] – انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 91/3-97.

موسى على هذا الفعل: لقد جئت شيئًا إمرا)، وفي اللحظة الزمنية التي رصدتها (ردة فعل العبد الصّالح، وتذكيره مرّةً أخرى بتوقّعه المسبق الذي أكّد موسى أنّه سيتحمّله ويطيقه: ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا)، فيبرز تغيّر موقف موسى من الاستنكار والرّفض إلى التماس العذر على النسيان (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا).

إنّ ردّة فعل موسى، لم تكن مرتكزة على القول نفسه، بقدر ما ارتكزت على تغيّر موقف العبد الصّالح تبعًا لتغيّر السّياق الذي وُضع فيه، وفعله الذي يثير موسى وهو لا يعلم أنّه (أمرٌ من الله بخرق السفينة لغرضٍ شريفٍ يعلمه العبد الصّالح من ربّه)، فتحوّل موسى تبعًا لذلك من سياق التقريع والرفض الذي أثار العبد الصّالح عليه، إلى سياق الوداعة والتماس العذر لنسيانه وهو بشر؛ ما جعل العبد الصّالح يعذره ويتابع معه المسير، على إثر فعل الاعتذار من موسى عليه السلام، أملًا في ألّا يعود، وإلّا تنتهي الصّحبة ويكون الفراق بينهما.

الموقف الثاني: ويتمثّل في قوله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (76)﴾ [الكهف: 74-76]

السياق القبلي: سياق قبل الانطلاق الثاني، عناصره موسى عليه السلام وغلامه والعبد الصّالح، وموضوعه (قتل العبد الصّالح للغلام)، ويتحدد العنصر الزّماني بالزمن الذي يلي فعل (القتل): قتل العبد الصّالح للغلام، وفعل الاستنكار الذي رافقه فعل القول (الفعل الكلامي)، إذ موسى -عليه السلام- يستنكر على العبد الصّالح فعله، بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾؛ وهذا ما استدعى ردّة فعلٍ تمثّلت في جانبين:

- جانب العبد الصّالح، وتمثّل التأثير الكلامي لديه في (تذكير موسى -عليه السلام- مرّةً أخرى بوعده بعدم التدخّل فيما يقوم به من أفعال) فجاء بفعل القول ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، والذي غيّر موقف موسى من الإنكار إلى الاستسلام والتبرير.

- فجانب موسى -عليه السلام- يتمثّل في (تبريره واعتذاره والعودة إلى الوعد الأول) بعدم التدخّل أو التعليق.

تغير السياق القبلي: سياق بعد الانطلاق، إذ حدث تغيير في العناصر الشخصية بإضافة الغلام، وتمّ تحديد العنصر المكاني (حيثُ التقيا الغلام)، كما أعدت عناصر ترصد بها أثر تغيّر السّياق (قتل العبد الصّالح للغلام)، ورصدت لحظةً زمنية محددة (لحظة اعتراض موسى: لقد جئت شيئًا نكرا)، وفي اللحظة الزمنية التي رصدتها (ردة فعل العبد الصّالح: ألم أقل لك..)، يبرز تغيّر موقف موسى من المستنكر الرّافض إلى المعتذر المبرّر: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

إنّ ردّة فعل موسى، لم تكن مرتكزة على القول نفسه، بقدر ما ارتكزت على تغيّر موقف العبد الصّالح تبعًا لتغيّر السّياق الذي وُضع فيه (الأمر من الله بقتل الغلام لغرضٍ يعلمه العبد الصّالح من ربّه)، فتحوّل موسى تبعًا لذلك من سياق الإنكار الذي أثار العبد الصّالح عليه، إلى سياق الوداعة والاعتذار والتسامح الذي جعل العبد الصّالح يصفح عنه ويجدّد له الفرصة في مرافقته، على إثر فعل الاعتذار من موسى عليه السلام، والذي ركّز على عدم العودة وإلّا تنتهي الصّحبة ويكون الفراق بينهما، نفس السّياق الذي وُضع فيه من قبل في القصّة السابقة.

الموقف الثالث: ويتمثّل في قوله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَآ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78)﴾ [الكهف: 77-78]

السياق القبلي: سياق قبل الانطلاق الثالث، عناصره موسى عليه السلام والعبد الصّالح، وموضوعه (إقامة الجدار المنقضّ)، ويتحدد العنصر الزّماني بالزمن الذي يلي فعل (طلب المأوى والزاد من أهل القرية ورفض أهل القرية إضافتهما) وهو (إقامة العبد الصّالح للجدار المنقضّ)؛ ما أثار حفيظة موسى – عليه السلام – ضدّه بعد رفض أهل القرية إطعامهما، فجاء فعل القول (لو شئت لاتّخذت عليه أجرا) لأنّ مثل هؤلاء لا يستحقّون أن تعمل لهم عملًا دون مقابل، فكان هذا (الفعل الكلامي) ختام جولته مع العبد الصّالح؛ لأنّه استنفد كلّ الفرص بعدم صبره وعدم تحمّله، فحين طلب إلى العبد الصالح أخذ الأجر، ثار الموقف، بالغًا الذروة، فلا فُرص أخرى (هذا فراق بيني وبينك) وهذا ما استدعى ردّة فعلٍ تمثّلت في جانبين:

- جانب العبد الصّالح، وتمثّل التأثير الكلامي لديه في (تذكير موسى –عليه السلام- مرّةً أخرى بوعده بعدم التدخّل فيما يقوم به من أفعال) فجاء بفعل القول (ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا)، والذي غيّر موقف موسى من مزيدٍ من طلب الأعذار إلى الاستسلام والإصغاء إلى العبد الصّالح في تفسيره ما مضى من مواقف لم يستطع موسى استيعابها.

- وجانب موسى -عليه السلام- يتمثّل في التسليم بالأمر، والانتقال إلى موقف الفضول لمعرفة أسباب ما مرّ من أفعالٍ غريبة لم يستطع تفسيرها أو استيعابها.

تغير السياق القبلي: سياق بعد الانطلاق، إذ حدث تغيير في العناصر الشخصية بإضافة أهل القرية، وتمّ تحديد العنصر المكاني (القرية البخلاء أهلها)، كما أعدت عناصر ترصد بها أثر تغيّر السّياق (إقامة العبد الصالح للجدار المنقضّ)، ورصدت لحظةً زمنية محددة (لحظة طلب موسى من العبد الصالح أخذ الأجر على فعله)، وفي اللحظة الزمنية التي رصدتها (ردة فعل العبد الصّالح: هذا فراقُ بيني وبينك)، ويأتي وقت المكاشفة بحقائق ما حدث بأمر الله تعالى؛ ليشبع فضول موسى – عليه السلام – ويودّعه في الآن ذاته (هذا فراق بيني وبينك).

إنّ ردّة فعل موسى، لم تكن مرتكزة على القول نفسه، بقدر ما ارتكزت على تغيّر موقف العبد الصّالح تبعًا لتغيّر السّياق الذي وُضع فيه (الأمر من الله بإقامة الجدار المنقضّ لغرضٍ يعلمه العبد الصّالح من ربّه)، فتحوّل موسى تبعًا لذلك من سياق الإنكار الذي أثار العبد الصّالح عليه، إلى سياق المستسلم للفراق بسبب ما ارتكب من نكثٍ للوعد خارجٍ عن إرادته، والذي جعل العبد الصّالح لا يمنحه فرصةً أخرى ولا يصفح عن سلوكه، وينهي الصحبة، موضّحًا لموسى أسباب ما كان يقوم به من أعمال لم يحتملها موسى عليه السلام.

ونلحظ من ذلك مدى تأثير الأفعال الكلاميّة المرافقة للسياقات، ومدى فاعليتها في توجيه السياقات أيضًا، أو تغييرها؛ فبالتطبيق على قصة موسى مع العبد الصالح من خلال الأفعال الكلاميّة الآتية، تبعًا لتقسيم (أوستين) للفعل الكلامي نرى ما يأتي: [1]

1 - فعل القول: ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحويّ سليم وذات دلالة.

[1] – انظر: قسميوري، **الأفعال الكلاميّة غير المباشرة من خلال شعر الحكمة – ديوان زُهير بن أبي سُلمى أنموذجًا**، ص ص23-25.

2 - الفعل المتضمّن في القول: هو الفعل الإنجازي الحقيقي، إذ إنّه عملٌ يُنجَز بقولٍ ما.

وفي الموقف الأول نجد -مثلًا- في قول موسى -عليه السلام-: (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) تضمينٌ لفعلٍ متوقع من العبد الصالح كاستجابةٍ لقول موسى، وقد تجسّد ذلك في ردة فعل العبد الصالح، التي جاءت على غير ما توقّع موسى-عليه السلام-.

3 - الفعل النّاتج عن القول (الفعل التأثيري): وهو فعلٌ ينتج - كما هو ظاهر – بواسطة فعل القول وما يصحبه من فعلٍ متضمّنٍ في القول، وقد يكون الفاعل هو الشخص المتكلّم بهذا الفعل الثالث (الفعل التأثيري) الناتج عن فعل القول، والمؤثّر على المخاطب بإقناعه وإرشاده. ولا تكتمل دائرة التأثير إلّا عند حدوث ردّة فعل من المرسَل إليه تتمثّل في الاستجابة للأمر مثلًا.

ومثاله في الموقف نفسه الفعل النّاتج عن موسى عليه السلام بعد تأنيب العبد الصّالح له ويتمثّل في قوله (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا).

خاتمة:

مما سبق يتضح لنا جليًّا أثر السّياق في عملية التّخاطب، وتأثيره في المواقف بتعديلها أو تبديلها، فالاهتمام بالسّياق في التحليل التداولي أمرٌ ظاهر، وقد رافقه اهتمامٌ آخر، وهو الاهتمام بما تحدثه اللغة من أثر في مستعمليها، فاللغة حسب (أوستين) لم تعد وسيلة تواصل فحسب، بل هي وسيلة للتأثير في الواقع لتغيير السلوك والمواقف، إذ يتمّ بفضلها إنجاز جملةٍ من الأفعال تعرف بـ(أفعال اللغة أو الأفعال الكلاميّة)، وقد أصبح هذا المفهوم (الفعل الكلامي) نواةً مركزيّة في الكثير من الأعمال التداوليّة، وهو يتضمّن في فحواه كلّ ملفوظٍ ينهض على نظامٍ شكلي دلالي إنجازي وتأثيري، له أثر واضح في تغيير السياقات، مما يدلّ على ترابط عناصر العملية التداوليّة وتأثيرها في بعضها البعض؛ وهو السبب الذي استدعى التعريج على كل نظريات المنهج التداولي في معرض الحديث عن السياقات التداوليّة، فلم تأت الدراسة للنظريات التداوليّة عبثًا، أو اسهابًا دون فائدة، أو إقحامًا يطغى على الهدف الأساس؛ لأنّ تلك الدراسة إنّما هي جزءٌ لا يتجزّأ من دراسة السياقات، فهي عناصر متضمّنة في تلك السياقات، بل ومكوّنة لها.

والمنهج التداولي -كأيّ منهجٍ آخر – واجه الكثير من النقد، ومع ذلك أثبت فاعليّته في دراسة السياقات التواصليّة المتباينة، وقد جاءت هذه الدراسة - بما فيها من إضاءة على الدرس التداولي وتطبيقه على الخطاب القرآني – لتثبت ما يأتي:

- أنّ التداوليّة ليس لها مجالٌ بحثي محدّد؛ فقد أثبتت فاعليتها في دراسة النّصوص والمواقف وجميع السياقات التواصليّة، وكلّ ما يحيط بالعمليّة التواصليّة بمختلف أنواعها اللغوية والإشاريّة والرمزيّة وغيرها.

- تمثّل التداوليّة منهجًا مستقلًّا، لكنّها ذو علاقة وثيقة بالبلاغة وعلم اللسان، لذا تحظى باهتمامٍ بالغ من كلا الفريقين.

- أهمّيّة السياق في التحليل التداولي، وأثره في عملية التّخاطب، وتأثيره في المواقف بتعديلها أو تبديلها؛ إذ التداوليّة منهجٌ تواصليٌّ، يهتم بأطراف العمليّة التواصليّة، ويسهم في حلّ الكثير من مشكلات التواصل ومعوّقاته.

- تعمل التداوليّة على إزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي الخاصّة بالظواهر المختلفة المدروسة؛ فالتداوليّة منهجٌ تواصليٌّ يعالج الكثير من القضايا والظواهر اللغويّة ويفسّرها تفسيرًا منطقيًّا.

- يقوم المنهج التداولي على شرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات، والاهتمام بما تحدثه اللغة من أثر في مستعمليها، مما تعجز اللسانيّات الصريحة عن القيام به؛ لأنّها لا تدخل في حيّز اهتماماتها، في حين تدرسها التداوليّة وتهتمّ بها في جميع حالاتها.

وهذا ما يثبت أنّ التداوليّة ليست سلّة مهملاتٍ للّسانيات – كما اتُّهمت-، وليست دراستها لكل ما يُلقى عليها مما عجزت عنه اللسانيات الأخرى عيبًا فيها، بل - في الواقع – هي ميزةٌ فيها – كما ترى الباحثة -؛ ولذا توجّه الباحثة إلى المزيد من الاهتمام بالدرس التداولي؛ لما له من المميّزات المجلية للنصوص؛ والمبرزة لمعانيها وجماليّاتها، وذلك بإجراء المزيد من الدراسات التطبيقيّة على النصوص العربيّة المختلفة شعريّةً ونثريّة بوجهٍ عام، وعلى نصوص القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف بوجهٍ خاص.

قائمة المراجع

- بوجادي، خليفة، 2009، ***في اللسانيّات التداوليّة، مع محاولة تأصيليّة في الدرس العربي القديم***، ط1، العلمة - الجزائر، بيت الحكمة للنشر والتوزيع.

- بوخشة، خديجة، ***محاضرات في اللسانيّات التداوليّة***، مستوى السنة الثالثة ل م د LMD.

- الجرجاني، عبد القاهر، 2004، ***كتاب دلائل الإعجاز***، ط5، تعليق: محمود محمّد شاكر، القاهرة – مصر، مكتبة الخانجي.

- ابن جنّي، عثمان، 1913، ***الخصائص***، ط1، تحقيق: محمّد علي النّجّار، بيروت – لبنان، دار الكتب المصريّة، النّاشر دار الكتاب العربي.

- الحباشة، صابر، 2009، ***الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني***، ط1، بيروت – لبنان، الدار المتوسطية للنشر.

- ختام، جواد، 2016، ***التداوليّة أصولها واتّجاهاتها***، ط1، عمّان – الأردن، دار كنوز المعرفة.

- خضر، محمّد شرف، 2008، ***بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم***، أطروحة (دكتوراه غير منشورة)، جامعة طنطا - مصر.

- خوية، رابح، 2018، ***التمظهرات التداوليّة في البلاغة العربية***، ط1، برج بوعريرج – الجزائر، الأرشيف العربي العلمي، جامعة محمد البشير الإبراهيمي - الجزائر.

- رحيمة، شيتر، 2008، ***التداوليّة وآفاق التّحليل***، مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعيّة، العدد 2-3، جامعة محمّد خيضر، بسكرة – الجزائر، ص ص3-4.

- ابن رزوق، سامية، 2013، ***بين البلاغة العربية والتداوليّة***، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، العدد 17، ص255.

- روبول، آن؛ وجاك موشلار، 2003، ***التداوليّة اليوم علم جديد في التواصل***، ط1، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمّد الشيباني، مراجعة: لطيفة زيتوني، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر.

- روقاب، جميلة، د. ت.، ***نظريّة أفعال الكلام بين التراث العربي واللسانيات التّداوليّة***، مجلة الأكاديميّة للدراسات الاجتماعيّة والإنسانيّة، قسم اللغة العربيّة،كلّية الآداب واللغات، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف – الجزائر، العدد 15، ص9-10.

- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، 1992، ***أساس البلاغة***، ط1، دار صادر، بيروت - لبنان.

- صحراوي، مسعود، 2005، ***التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة (الأفعال الكلاميّة) في التراث اللساني العربي***، ط1، دار الطليعة، بيروت - لبنان.

- ضبعي، النذير، 2014-2015، ***الأبعاد التداوليّة في مقامات الحريري***، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة محمّد خيضر، بسكرة – الجزائر.

- عكاشة، محمود، 2013، ***النظريّة البراجماتيّة اللسانيّة (التداوليّة): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ***، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر.

- عمير، خميس فزاع وزميله، 2016، ***نظريّات المنهج التّداولي عند علماء جامعة أكسفورد (تحليل وصفي تطبيقي)***، كليّة التربيّة/القائم- جامعة الأنبار - العراق، العدد 5، ص4.

- فتغنشتاين، لودفيك، 2007، ***تحقيقات فلسفيّة***، ط1، ترجمة: عبد الرزّاق بنّور، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت – لبنان.

- قسميوري، كريمة، 2016، ***الأفعال الكلاميّة غير المباشرة من خلال شعر الحكمة: ديوان زُهير بن أبي سُلمى أنموذجًا***، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة - الجزائر.

- ابن كثير، إسماعيل، 1982، ***تفسير القرآن العظيم***، ط1، دار المعرفة، بيروت – لبنان..

- لخضر، العرابي، 2019، ***المقام في الدرس البلاغي***، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، مجلد 55، العدد 1-2، ص ص88-96.

- لعور، آمنة، 2011، ***الأفعال الكلاميّة في سورة الكهف – دراسة تداوليّة***، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة - الجزائر.

- لعيشي، نسيمة، 2016، ***التداوليّة في فكر طه عبد الرحمان***، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة محمد بو ضياف، المسيلة - الجزائر.

- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، 1955، ***لسان العرب***، مجلد 11، دار صادر، بيروت - لبنان.

- يول، جورج، 2010، ***التداوليّة***، ترجمة: د. قصي العتابي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرّباط - المغرب.

Pragmatic contexts and their impact on the story of Moses, peace be upon him, and the good man
- Pragmatic study -

Fatima Abdulrazak Abdulrahman Karamastaji

PHD researcher in Arabic Language and Literature

College of Arts, Mohammad bin Zaid University, UAE

202100260@mbzuh.ac.ae

Prof. Labidi Bousbdullah

Head of the Arabic Language Department

College of Arts, Mohammad bin Zaid University, UAE

Labidi.bouabdallah@mbzuh.ac.ae

Abstract:

This study aims to highlight the importance of the pragmatic approach as a modern linguistic approach in the study of language, looking for a solution to many linguistic problems neglected by other linguistics. Pragmatics is an extension of the efforts of the functional direction, which believes that the communication process goes beyond that to external elements represented in everything that surrounds the conversational process; In order to clarify the intentions of the speaker, and his meanings that are required to be delivered to the addressee which allows identifying the human capabilities of linguistic communication. Therefore, Rudolph Carnap considered pragmatics the base of linguistics. Because the meanings of speech also the results from the semantics through the circumstances of the context. This is what gave this field a new epistemological dimension in which sciences overlap. This is what the current study came to prove by employing the analytical descriptive approach and choosing the pragmatic approach to analyze the story of Moses -peace be upon him- with the good man in Surat Al-Kahf; this is because of the Quranic discourse of uniqueness over all discourses, and to show the impact of the Pragmatic context (verbal and actual) on understanding events and changing attitudes accordingly.The study showed the effectiveness of the pragmatic approach and its validity for all linguistic discourses, due to the capacity of pragmatic, because of its various sources.

keywords: pragmatic contexts, Quranic discourse, the story of Moses with the good man, the act of achievement, the implications of saying.